

المحاضرة الرابعة

غايات البحث الشرعي

غايات البحث الشرعي :

تجد كثيراً من المعاصرين يصرون على أن التأليف ينحصر في ابتكار الجديد ولاشيء غيره، والابتكار والتجديد من أهم مقاصد التأليف في الشريعة الإسلامية، وأسمى غاياته، غير أن هذه الدعوى غير صحيحة عند من يدعيها لقيامهم بالتأليف في اغراض أخرى ليس منها ابتكارا بالمعنى الدقيق ولا تجديداً وإنما هي في أغلب الأحيان تكرار وتقليد، إلا إذا كان معنى التجديد والابتكار عندهم يتسع لتلك الأغراض والمجالات، فإن قصروا معناه على ما هو متبادر ومعروف، فهو تشديد في محل تيسير وتضييق في محل سعة، وعليه فإن البحث في الدراسات الإسلامية والتأليف فيها ينبغي أن تكون له غاية يرومها الباحث ويصبو إلى تحقيقها، ومن العلماء المسلمين من قصر أهداف الكتابة والتصنيف في سبعة أهداف ذكرها ابن حزم وبسطها العلامة ابن خلدون في مقدمته، وهي:

١. استنباط العلم بموضوعه وتقويم أبوابه وفصوله، وتتبع مسأله أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق يحرص على إيصالها لغيره لتعم به الفائدة فيودع ذلك بالكتابة في الصحف لعل المتأخر يظهر على تلك الفائدة كما وقع في أصول الفقه، فقد تكلم الشافعي أولاً في الأدلة الشرعية اللفظية ولخصها ثم جاء الحنفية فاستنبطوا مسائل القياس واستوعبوها وانتفع بذلك من بعدهم إلى الأبد.

وتعد هذه الغاية من أسمى غايات البحث العلمي وحاجة المسلمين إليها ماسة لأن اسرار الوحي مازال منها الكثير يحتاج إلى إظهار واكتشاف فإن الوحي أوسع من العقول وسابق للعصور وقد يكتشف منه اللاحق ما لم يخطر ببال السابق بسبب طلبه والحاجة إليه في أوانه وإبانه ولم تدع السابق الحاجة إلى ذلك فلم ينتبه إليه ولم يعرج عليه.

٢. تصحيح غلط أو خطأ من كلام السابقين وبخاصة إذا كان ذلك الكلام من عالم اشتهر فضله، وبعد في الإفادة صيته، ويتم الاستيثاق في ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه، ويوصل كل ذلك لمن يأتي بعده حتى يمحوا ما انتشر في الآفاق والأعصار بشيوع التأليف وشهرة المؤلف ووثوق الناس بمعارفه، فيكون هذا البيان حاجة ماسة ليقف الناس على الصواب.

٣. تكميل الناقص، وذلك بأن يكون الفن قد نقصت منه مسائل أو فصول فيأتي من يتمم النقص ليكمل الفن بكمال مسأله وفصوله ولا يبقى للنقص فيه مجال.

٤. ترتيب غير المرتب وتهذيب غير المهذب فإن الترتيب والتهذيب ضروري لحصول الفائدة وتجويد التأليف وهو قصد حسن كما فعل كثير من العلماء مع مؤلفات شيوخهم مثل فعل ابن أبي زيد القيرواني مع المدونة وغيره مع غيرها.

٥. جمع ما تفرق، فقد تكون مسائل العلم منشورة في مواضع شتى وموزعة في علوم اخرى، فيأتي الباحث فيجمع ما تفرق وينظم ما تشتت فيجتمع شمل المسائل في باب واحد، أو فن واحد أو مؤلف واحد، كما فعل عبد القاهر الجرجاني وأبو يوسف السكاكي في علم البيان حين وجد مسائله متناثرة في كتب النحو.

٦. تلخيص المطول واختصار المسهب فكثير من المؤلفات التي تضمنت أمهات الفنون جاءت مطولة مسهبة فقلت الاستفادة منها، فيأتي من يقصد بالتأليف فيها تخلص ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر إن وقع مع مراعاة عدم الإخلال بقصد المؤلف الاول .

ومن أهداف البحث والتأليف التي شاعت في عصرنا وانبرت لها الجامعات وطلاب الماجستير والدكتوراه ، تحقيق المخطوطات العربية ونشرها وترجمتها وقد تزايد طبع المخطوطات بعد تحقيقها حتى بلغ ذروته في العقد تعتمد العلوم الشرعية بالمعنى الأعم الذي يعم جميع المصالح ويدري جميع المفاصد على الأدلة الكلية المعتمدة وهي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس وأساس جميع الأدلة والمصادر الكلية القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وهما محل إجماع الأمة ويليهما الإجماع والقياس وهما محل اتفاق جماهير الأمة ولم يخالف فيهما إلا من شذ كالظاهرية نفاة القياس ومن شكك في وقوع الإجماع أصلاً أو شكك في وقوعه بعد عهد الصحابة رضوان الله عليهم. وهناك أدلة أخرى كثيرة هي محل خلاف بين العلماء لكنها من الأهمية بمكان وتعد مصدراً لعدد من الأحكام والمسائل لا حصر لها .

ومن القواعد التي جرى العمل بها عند الباحثين أن الحديث إذا كان في الصحيحين البخاري ومسلم أو في أحدهما اكتفي بالعزو إليهما أو لمن أورده منهما وإن كان في غيرهما يعزي إلى من خرجه من أصحاب السنن وغيرهم، وقد يحتاج الحديث حينئذ إلى ذكر الحكم عليه عند من أورده أو غيره ، وطرق التخريج للحديث تتنوع بتنوع طريقة التصنيف، فمن المصنفات من جمع الأحاديث حسب الموضوع ككتب الصحاح والجوامع وغيرها وهذه يتم البحث عن أحاديثها عن طريق الموضوع. ومنها ما يتم البحث عنه عن طريق مطلع الحديث كما في الكتب التي وضعها مؤلفوها حسب بداية الحديث والفهارس والمفاتيح التي صنفها العلماء لكتب مخصوصة ومنها ما يتم البحث عن الحديث فيها عن طريق اختيار كلمة مميزة في نص الحديث كالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي"، وكتاب تيسير المنفعة بكتابي مفتاح كنوز السنة والمعجم المفهرس لألفاظ

الحديث النبوي ومنها ما يتم البحث عنه عن طريق معرفة الراوي الأعلى الصحابي أو التابعي كمدونات المسانيد والأطراف، ومنها ما يتم البحث عن عبر طريق صفة ظاهرة في متن الحديث كالأحاديث القدسية أو في سنده كأحاديث المراسيل أو الموضوعية.